لأَنَّ رَحْمَتَكَ أَفْضَلُ مِنَ الْحَيَاةِ

قدس الإيكونومس أنطوان ملكي المغبوط الذكر

العنوان جزءٌ من الآية 4 من المزمور 63. يذكر المفسّرون أنّ داود النبيّ كان في برّيّة يهوذا حين أنشد هذا المزمور. كان مستبعَدًا عن الهيكل، يعيش طريدًا لا مأوى له. لقد عبّر النبيّ في هذا المزمور عن شوقه، النابع من أعماق قلبه، نحو الله والسكنى في بيت الربّ وفي مدينة الله.

بحسب غالبيّة المراجع الليتورجيّة، وكما يرد في قوانين الرسل في الشرق منذ عصورٍ مبكرة، كان هذا المزمور يُستخدم في الشرق كتسبحةٍ صباحيّة. أمّا في الغرب، فقد كان في البدء بين مزامير العشيّة، ولكنّه نُقل لاحقاً إلى الصلاة الباكريّة، بحسب ما يرد عن القدّيس يوحنّا كاسيان.

أمّا القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم فيقول إنّ آباء الكنيسة الأولى كانوا يرون أنّه لا يجوز أن يعبر يومٌ دون الترنُّم بهذا المزمور في الصلوات. لهذا لا يليق بالكنيسة أن تكفّ عن التسبيح به كلّ يوم، إذ إنّه دواءٌ يُلهِبُ فينا الشوق نحو الله، ولهذا دعته الكنيسة الأولى مزمور الصباح.

في الكنيسة الأرثوذكسيّة هو ثالث مزمورٍ بين مزامير السحريّة، في آخر المجموعة الأولى. وهو يُقدَّمُ كذبيحةِ شكرٍ لله، مع الاعتراف بالثقة العظيمة به والاتّكال عليه.

ينقسم هذا المزمور إلى ثلاثة أقسام: (1) عطش نفس المرتّل إلى الله، من الآية 1 إلى 4؛ (2) شبع النفس بالله من 5 إلى 7؛ و (٣) ثقة النفس بالله واتّكالها عليه من 8 إلى 11.

" لأَنَّ رَحْمَتَكَ أَفْضَلُ مِنَ الْحَيَاةِ"، في هذه الآية كلمتان مهمّتان جدًّا: الرحمة والحياة. ما هي الرحمة وما هي الحياة، وما العلاقة بينهما؟

الرحمة

الرحمة لا تعني تبرير الباطل والخطيئة، بل التسامح مع الجهل والشرّ. ليست التغاضي عن الظلم والظالم، بل التعاطف مع الأشرار والواقعين في قيود الخطيئة. الرحمة تعني التخلّي عن كلّ برّ ذاتيّ وكلّ تبريرٍ للذات مقارنةً بالآخرين، ورفض إدانة مَن يرتكب خطأً نحونا، بل الغفران لمن يؤذون ويدمّرون أنفسهم والآخرين، وطلب مغفرة خطايانا كما نغفر لمَن أساء إلينا.

قبل المسيحيّة، عُرفت الرحمة في التقاليد العبريّة واليونانيّة. لكنّ الرحمة في جمهوريّة أفلاطون تتناقض شكلاً بشدّةٍ مع المفهوم المسيحيّ، إذ تميل نحو العدالة البشريّة أكثر. في التقليد اليهوديّ، كان يُنظر إلى عدم الرحمة على أنّه انتهاكٌ لوصيّةٍ إلهيّة، ويمكن أن يجلب عقابًا إلهيًّا للمجتمع بأكمله، مع التركيز على أنّ الله هو الرحوم وأنّ الرحمة صعبةٌ على البشر.

في المسيحيّة، لا تقتصر الرحمة على خاصّتنا، بل تشمل الآخرين، بغضّ النظر عن العرق أو الطبقة الاجتماعيّة أو حتّى الدين. الرحمة شكلٌ من أشكال المحبّة التي لا تضيع في ما هو مؤقّتٌ وعاطفيّ، وهي تتحقّق في أعمالٍ ملموسة، بحسب المثال الذي قدّمه السيّد المسيح. تعمل الرحمة كدواءٍ للنفس كما لأمراض المجتمع، كعدم المساواة الاجتماعيّة والظلم. الرحمة هي المظهر العمليّ للمحبّة بين البشر وهي ترفع الإنسان من صورة الله إلى شبهه.

الرحمة في الكتاب المقدّس

تتكرّر كلمة رحمة ٤٦٧ مرّة في الكتاب المقدّس. في العهد القديم، نلاحظ أنّها تُستعمل كصفةٍ من صفات الله أكثر ممّا هي صفة للبشر. "الربّ صانع الرحمات والقضاء لجميع المظلومين"، الربّ رحيمٌ ورؤوفٌ طويل الأناة وكثير الرحمة"، "رحمتكَ أفضل من الحياة".

أمّا العهد الجديد، فيبدأ بتطويب الرحماء لأنّهم يُرحمون (متّى 5) ، وتتطوّر الفكرة إلى أن تصير دعوةً إلى مشابهَة الله "كُونُوا رُحَمَاءَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمْ أَيْضًا رَحِيمٌ" (لوقا 6: 36).

الإنسان الروحيّ

يرى يسوع أنّ الإنسان الروحيّ رحيمٌ لأنّه هو نفسه إنسانٌ قابلٌ للخطيئة، وبالتالي يحتاج إلى رحمة الله ومساعدته. لا يوجد أحدٌ بلا خطيئة ولا يستطيع أحدٌ أن يدّعي البرّ أمام الله. "إذا ادّعى أحدٌ أنّه بلا خطيئة، فهو كاذبٌ ويجعل الله كاذبًا أيضًا". أمّا الإنسان الروحيّ، كونه في اتّحادٍ مع الله، يعترف بخطيئته وحاجته إلى الغفران من الله ومن الناس، ولهذا هو يرحم الآخرين كما يرحم نفسه. وفوق كلّ هذا، الإنسان الروحيّ يرحم الخليقة، فلا يؤذي المخلوقات التي فيها ولا الطبيعة.

الحياة

" لأنّ رحمتكَ أفضل من الحياة": يرى داود أنّ الموت مع التمتّع بمحبّة الله وحنوّه، خيرٌ من الحياة من دونهما، فالحياة لا قيمة لها من دون المحبّة الإلهيّة.

تعليقًا على هذه الآية، يقول القدّيس أثناسيوس إنّ مَن يتقدّم إلى المسيح يُفضّل رحمته وتسبحته على طول العمر. أمّا القدّيس ثيوفانِس الحبيس فيُحدّد أنّ الهدف النهائيّ للإنسان هو الشركة مع الله، وقد تمّ تحديد الطريق إلى هذه الشركة بدقّة: الإيمان، والسلوك في الوصايا بمعونة نعمة الله. إذًا، طريقة الحياة الأرثوذكسيّة ليست الطريقة العاديّة التي يسلك فيها معظم الناس في يوميّاتهم، والتي يقول داود إنّ رحمة الربّ أفضل منها. الحياة الأرثوذكسيّة هي السعي إلى القداسة والاتّحاد بالله، والتي تتحقّق برحمة الله.

فيسوع جاء ليُخلّص البشر ويفتح لهم أبواب السماء، إذ أراهُم كيف يسلكون بتعاليمه ومثاله في كنيسته. طريقة الحياة هذه تقرّب من الله، وكلّما اقترب الإنسان من الله، زادَت قدرته على التعامل مع أيّة صعوبةٍ قد تواجهه. وبهذا تكون الرحمة مدخلًا إلى الحياة الفضلى.

إذا كانت الرحمة تعني أنّنا على مثال الله، وإذا كانت الرحمة من الله وإلى الله، تكون الحياة الحقيقيّة في الرحمة.

نصّ حديث أُلقي في فرقة القديس نيقولاوس للعائلات في رعية بشمزين، في ٢١ تشرين الأول ٢٠٢٢.